نظرية التطور الحيوى

عرض — ونقد

د. عبد الرحمن المراكبى

بعد أن إنتهينا من مناقشة المذهب الآلى ، والدينامى فى مقال سابق(١). نتنقل الآن إلى مناقشة مذهب « التطور الحيوى » أو « العضوى » الذى لا يكون إلا حيث توجد المادة ، والحركة . فإن « وثبة الحياة التى تتحدث عنها فى إقتضاء الخلق لا تستطيع أن تخلق شيئاً من العدم مطلقاً»(٢) .

وإذا كنا هناك قد إنتهينا إلى أن المادة لا تخلق نفسها ، وإلى أن الحركة والقوة لا توجد بذاتها . بل لابد من خالق للمادة ، ومحركها . بناء على حدوث كل من المادة والحركة والقوة(٣) .

فإننا نناقش هنا مشكلة « خلق الحياة فى المادة » أو مشكلة « تحول المادة الجامدة إلى المادة الحية وتطورها » .

ولمناقشة هذه القضية نلتقى — ضرورة — « بنظرية . تهيمن اليوم على العالم بأسره وهى : نظرية التطور »(٤) .

---

(١) راجع حولية كلية أصول الدين — المنوفية . العدد السادس لعام ١٩٧٦م ص١٢٩ وما بعدها

(٢) التطور الخالق : هنرى برجسون : ٢٨٦ ترجمة د. محمـــود قاسم وزارة الثقافة

(٣) راجع حولية أصول الدين — المنوفية . العدد الخامس ١٩٨٥ م . ص٣٠٣ وما بعدها

(٤) العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة : إميل بوترو : ٢٠٩ ترجمة د: أحمد فؤاد الأهوانى الهيئة العامة

إن نظرية التطور — تعتبر — أكبر مفهوم ثورى فى تفكير الإنسان حول نفسه ، وعالمه خلال السنوات المائة الأخيرة .. لقد غيرت خريطة العالم الفكرية بكاملها : فى الفلك ، وفى عـــلم طبقات الأرض ، وفى علم الحياة ، وأخيراً فى العلوم الاجتماعية »(١) .

لقد انقضت كالسيل الجارف .. على جميع مجالات الحياة .. وأصبحت الفلسفة الشعبية للمثقفين ، وأنصاف المثقفين وغير المثقفين على السواء .. وأثارت الصراع بين الفرق المتباينة ، واستفزت بوجه خاص أولئك الذين لم يروا فيها إلا قوة معادية للدين ، والأخلاق ، وكل القيم التى كان معترفا من قبل »(٢) .

« وكانت نقاط الإحتكاك الأساسية لها أولا : فى حقل الدين .. ثم فى الاقتصاد والأخلاق ، فالدين إذا كان يستلزم العناية الإلهية ، والخلق والعقل ، والحرية . فإن لفظة التطور لا تعنى إلا الميكانيكية ، والضرورة البحتة ، والمادية »(٣) .

ولما كان العلم المادى قد أدى فى هذا العصر إلى ظهور فلسفة ميكانيكية تتصور الطبيعة نسقاً من المادة المتحركة طبقاً لقوانين المادة نفسها — خلافا للتصور الدينى الذى يرد كل شىء فى هذه الطبيعة إلى فعل الخالق وإرادته وهو (الله) تعالى — فقد تلقف الماديون هذه النظرية ليعلنوا بها الحرب

---

(١) تكوين العقل الحديث : جون هرمان راندال : جـ٢ : ١١٥ ترجمة د . جورج طعمة بيروت .

(٢) الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام : رودلف مقس : جـ ١ : ١٠٨ ترجمة د . فؤاد زكريا .

(٣) العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة : إميل بوترو : ٢٠٩ ، لا تعنى غير ذلك فى نظر هؤلاء الذين استفزتهم النظرية .

على (الله) والدين ، وقد أخذوا يروجون لها وهم يصفقون لهذا الإنتصار الهائل الذى أحرزه العلم وحققه ، ولهذه الهزيمة المنكرة التى منيت بها الأديان فى قولها : بالخلق المستقل ، وثبات الأنواع ، وقداسة الإنسان وخلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وفى زعمها بأن الله هو الخالق لهذا الكون بما فيه من حياة وأحياء .. إلخ .

وفى الحقيقة و « الواقع أن إدعاء إنتصار العلم ، وهزيمة الدين أغنية — رخيصة — قديمـــة طالما رددها الماديون .. رددوها عندما أعلن « نيوتن » جاذبيته ، وعندما أعلن « كبلر » نظامه الكونى ، وعندما سادت نظرية الجوهر الفرد والخلق الذاتى ، وألحوا فى ترديدها عندما صيغت نظرية التطور ، ويوم أعلنت نسبية « أينشتين » ، ونظريه الكتلة والقوة .. إلخ .

ونسوا أنهم أعلنوا فى كل مرة أن مغاليق الكون قد فتحت ، وأن الكون قد أمكن تفسيره ميكانيكيا ، وآلياً ، وأن فكرة (الله) الخالق قد أضحت بالية »[1] .

ولكنهم يلتهون فى كل مرة إلى خيبة أمل ورجاء عندما تنكشف الحقيقة ، وينجلى الموقف وينقشع نقع الغبار . فتهدأ الثورة حينا فى إنتظار كشف جديد .. وهكذا « يمضى الزمن ومعطيات العلم تزداد يوماً بعد يوم — ولكن — بعضها يضرب بعضا ، ويتبين لنا أن ما كان بالأمس حقا قد غدا اليوم باطلا ، وما هو مقبول اليوم سيرفض عداً أو بعد غد . ولا شك أن — أن بعض هذه .. المعطيات — قاطع وحق ، ولكن بعضها الآخر — وهو كثير — إجتهادات ونظريات . وبعضها الثالث ،

---

(١) بين الإلحاد والتوحيد : قضية ودفاع : ٩٦ عبد العزيز حسين ط/١ سنة ١٩٦٩ م

وهو أكثر الكثير — ظنون وتخمينات ، وبعضها الرابع — وهو أكثرها ، عيول وتحزبات ، وأهواء »(١) .

وإذا كانت معطيات العلم ونتائجه تقض — دائماً — مضاجع رجال الدين عند غير المسلمين .

فإن الأمر فى الإسلام على النقيض من ذلك . لأننا على علم يقين بأن حقائق العلم الصحيحة والثابتة لا يمكن أبداً أن تتعارض مع الإسلام فى جوهره وحقيقته . لأن الحق لا يصادم الحق ، بل يؤيده ويقويه .

و « كثيراً ما يظن العامة أن العلم يعارض الدين ويناقضه ، وأن العلماء جميعاً لا أدريون إن لم يكونوا ملحـــدين . بينما حقيقة الأمر على نقيض ما يظنون . إذ أن معظم العلماء يجدون فى علمهم أكثر من دليل . . مقنع يدفعهم إلى النظر فى الظواهر الطبيعية بعين الإجلال والتقديس ، وهم جميعاً يقرون بأن هناك من المفاهيم العلمية — كمعان الزمان ، والمكان ، واللانهاية ما لا يستطيع ذكاء الإنسان المحدود أن يدركه ، ويحيط بكنهه »(٢) .

إن الإسلام يدعو إلى العلم ، ويحث عليه ، ويغالى بقيمته . ويدعو العلماء إلى السير فى الأرض والنظر فى الكون لكشف أسراره ، وسير أغواره ، ومعرفة سنن الله فيه .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير »(٣) .

---

(١) مجلة عالم الفكر : م ١٢ : ٥١٤ : ١٩٨١ م .

(٢) طبائع الأحياء : يروك وورث ، وروبرت اندرز : ١٤ ترجمة د : عبد الحافظ حلمى .

(٣) العنكبوت : الآية ٢٠

ولكن « ليس للعقل المتدين أن يأسف لأن العلم الطبيعي لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة .

— كما يقول : « السير آرثر تومسون » ، إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغتبط ، لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم — حيث لم يكن ذلك ميسوراً في أيام آبائنا وأجدادنا .. فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا في الله .. فإن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى .

— إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة ، وأرضاً جديدة ، وحفزه من ثم إلى غاية جهد العقل . والإنسان يجهل حاجته إذا وضع الدين أمام العلم ، موضع المناجزة . وقال لنفسه : إما هذا ، وإما ذاك .. فالذي نحن على يقين منه أننا في حاجة إلى مزيد من العلم ، ومزيد من الدين »(١) .

أو بمعنى أصح نحن في حاجة إلى العلم الموصول بالله . دون العلم المنبت عنه ، أو المنقطع دونه .

هذا الذي وصم القرآن الكريم أتباعه بقوله : (ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »(٢) .

وإذا كان الإسلام ديناً يحث المسلم على العلم والنظر والمعرفة ، وإذا كان المسلم — بتوجيه من دينه — على المنهج ، والتفكير ، والاتجاه . فليس له مطلقاً أن يقبل الظن والاحتمال على أنه حقيقة علمية . وإلا كان في موقف المساءلة أمام ربه ودينه (ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر

---

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين : ٩٤ الأستاذ : العقاد .

(٢) الروم : الآية ٦ ، ٧

والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)(١) (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)(٢) ، (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً)(٣) .

ومن ثم فواجب المسلم أن يتخذ المنهج العلمي طريقاً للوصول إلى التعرف على نتائج العلم وقضاياه . فلا يسارع بالقبول مجاراة للحداثة ، والمعاصرة ، ولا يتعجل بالرفض مجاراة للتعصب المقيت غير المستبصر . بل عليه أن يتثبت ويستوثق . فلا يؤمن إلا عن دليل ، ولا يرفض إلا عن بينة .

إن كثيراً من المسلمين يتنكبون منهج الإسلام ويقعون فريسة للضلال حينما يفقدهم التعصب للفكرة أو عليها روح النزاهة والحيدة في فهمهم لها، أو حكمهم عليها .

ولا أدل على ذلك مما نحن بصدد بحثه الآن وهو « نظرية التطور فمع علمنا مسبقاً بأنها ما تزال فرضاً لم يصل بعد إلى درجة الحقيقة العلمية الثابتة، وما تزال عرضة للتغيير والتبديل والنقد من كثير من العلماء الأدقاء : فالثابت حتى الآن — أن نظرية «داروين» في التطور ليست إلا نظرية مجردة ، ولم تصبح حتى الآن حقيقة ثابتة »(٤) . وإن نشأة الأنواع وتطورها قد بقيت حتى الآن لغزاً كما كانت ، ولم تصبح قانوناً علمياً »(٥) . وأننا ، إذا رجعنا

---

(١) الإسراء : الآية ٣٦

(٢) النجم : الآية ٢٣

(٣) النجم : الآية : ٢٨

(٤) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة : أبو الأعلى المودودي : ٢٧٦ تعريب خليل الحامدي .

(٥) العلمانية والإسلام ٩ د : محمد البهي ، مجمع البحوث الإسلامية .

إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا من أصوله وفروعه »(١) كما يقول الأستاذ العقاد: مع ذلك فإننا نجد من الباحثين من يرفض النظرية بجملتها دون تمييز بين حقها وباطلها . ودون دليل على رفضه إياها . وربما كان ذلك تعسفا أو تعصبا .

ومنهم من يؤمن بها إيمانا تاما ، ويعتقد يقينها اعتقادا جازما ، حتى بلغ من اهتمامهم بها وإيمانهم بصدقها أن أصبحت — تأبعاز منهم — تدرس فى جامعاتنا ومدارسنا وكأنها حقيقة مقررة . على حين أخذ بعضهم فى الترويج لها ، وتطويع نصوص الإسلام لكى تتوافق مع مقرراتها ، وتتسق مع منطوقها .

وغالب هؤلاء : من أولئك الذين يبهرون دائما بكل جديد، وينتصرون لكل ما ينسب إلى العلم من قريب أو من بعيد دون تمحيص . «فالفرويدية» فى وقتها كان التشكيك فيها عندهم يعتبر كفرا . «والدارويفية» يعتبر الخروج عليها عندهم خروجا على العلم الصحيح . . والمادية التاريخية يعتبر نقدها فى نظرهم ضربا من الخرافة والجهالة . . وهكذا نراهم دائما يؤلهون العلم أو ما ينسب إليه .

فرسالة العلم — فى نظرهم — هى احترام ذلك الإله الذى لديهم به وحده يقين مؤكد . . وما الدين إلا خدمة قضية العالم ، وما التقديس إلا تأمل ما أنجزه العقل .. وأن مكتشفى الحقيقة لهم القديسون ، والصالحون بحق» كما يقول إمامهم «بيرش»(٢) .

والحقيقة أن عصر عبودية العلم الذى مثله «برشن» و «تندل» و«رسل»

---

(١) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ٥٩ العقاد .
(٢) الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام حـ ١ : ١٣٤

و «دارون» و «ماركس» و «دوركايم» وغيرهم قد انتهى . ولكنه ما زال يجد عبدة له فى الشرق!.

لقد أصبح العلماء اليوم أكثر تواضعاً ، وأضحى رجال العلم البارزين يصرون بمنتهى الحماس على حقيقة مؤداها: أن العلم لا يقدم لنا سوى معرفة جزئية عن الحقيقة . أما الأجزاء الأخرى الأشمل ،والأوسع ، والأعمق فإنها تند بالضرورة عن قدرة العلم على ، الإحاطة . وهنا تبدو القيمة الحقيقية للدين »(١) .

التطور : مفهومه ومعناه :

والتطور هو : الاستمرار ، أو الاتصال المشى ، وهو نظام التغير الذى لا يمكن عكسه، وهو يعتمد على الصيرورة والتحول . ويذهب إلى أن القانون العام نحو الكائنات يتلخص فى تنوع وتكامل مستمرين »(٢) .

ويرى كثير من العلماء : أن التطور يتضمن معنى «الإرتقاء» الذى يعنى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الكامل إلى الأكمل ، أو الى الأكثر كمالا .

ويرى البعض : أنه ليس من الضرورى أن تكون التغيرات المستمرة التى تطرأ على الكائنات الحية فى مسيرتها التطورية موجهة الى الأكمل . أو الأحسن ، أو الأرقى ، فقد تتغير وتتطور إلى الأحط والأدنى ، بل ربما تصير إلى الفناء والزوال(٣) .

---

(١) عالم الفكر م ١٢ : ٢٣٦ عدد يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٩٨١

(٢) المعجم الفلسفى : بمجمع اللغة العربية : ١٧٥ (مذهب التطور) .

(٣) كالديناصورات مثلا، فإنها مع ضخامتها قد قضى عليها لعدم تكيفها مع البيئة .

ويعرف التطور الحيوى ، أو العضوى — على وجه الخصوص — بأنه: مفهوم يتضمن الاعتقاد بأن الحيوانات ، والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجى مستمر ، وأنه « ظـــاهرة طبيعية تعنى تغير صورة الكائنات الحية ، وظهور أنواع وأشكال جديدة منها » — كما يعرف بأنه : نظرية تفترض « أن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد ، أو بضعة أصول ، وأن التغيرات المختلفة التى حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى أخرى أكثر تعقيداً »(١) .

(١) نظرية التطور ١٨ د : محفوظ عزام ط٢ دار الهداية .

الحياة وخصائصها وأصولها

(١) خصائص الحياة :

يسلم كثير من العلماء بجهلهم فيما يتعلق بأصل الحياة وكيفية نشوئها : فإن سر بداية الأشياء أمر غير قابل للحل كما يقول «داروين». وهو يقول أيضا : أنى لا أستطيع أن أدعى بأنى ألقى أقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة .. وإنى قانع بأن يكون موقفى هو موقف (اللاأدرى) حول هذا الموضوع»(١) .

ورغم ذلك فإن «داروين» كبقية الماديين لا يريد أن يعترف بأن هذه النشأة قد تمت بفعل الله ، فيقول : « إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت»(٢) .ذلك لأن الماديين من العلماء لا يرون فى مشكلة الحياة مشكلة « ميتافيزيقية » بل هى ظاهرة « بيولوجية » بحته لا دخل للميتافيزيقا فى تفسيرها أو تأويلها ، أو بيان أصلها .

ومن الواضح أن الأفعال الحيوية تختلف من وجوه شتى عما هو معروف فى عالم غير الأحياء .

منها مثلا :

١ — أن المادة الجامدة لا حراك بها دون محرك من خارج ذاتهـــا ، أما الكائن الحى فتوجد فيه حركة ذاتية مصدرها قوة داخلية هى مبدأ حياته وحركته . وهذه القوة لا وجود لها فى غير الجماد .

---

(١) مجلة تراث الإنسانية م ٩ ع ١ سنة ١٩٧١

(٢) التطور والثبات فى حياة البشر ٣٩ ، ٤٠ محمد قطب .

٢ — تقوم الخلايا الحية بعملها ضد الطبيعة باستخدام الطاقة فى انتخاب ما يدخله جدار الخلية من مواد لغذائها ، وهو امر يفوق الطبيعة .

٣ — نمو الخلايا وانقسامها ، وهى مسألة تكاد تستعصى على العرض ، والإيضاح — كما يقول «ورث» و«اندرز» إذا أننا معها — سنجد أنفسنا نواجه المجهول »(١) .

٤ — فى الكائن الحى أعضاء منسقة متعاونة تقوم بوظائف مرسومة تؤدى فى النهاية إلى غاية واحدة هى بقاء الكائن الحى ونماؤه ونجد ذلك حتى فى الخلية الواحدة ، حيث ترى فيها جميع ظواهر الحياة من تولد ونمو وتكاثر وتغذى إلخ بخلاف الجماد فهو كل متجانس .

٥ — فى الكائن الحى مبدأ غائى يوجهه إلى إتمام طبيعته دون علم أو إرادة منه .

٦ — يستطيع الكائن الحى أن يبنى نفسه ، وأن يوجه نشاطاته إلى وظائف متكاملة تدل على وحدته كما يستطيع الاحتفاظ بهذه الوحدة وبسائر خصائصها التى لا غنى له عنها رغم وجود التغيير التى تطرأ عليه .

٧ — تستطيع الأجسام الحية أن تكرر نفسها ، وأن تمر بأطوار من التغير تستطيع أن تكررها وليس لهذا مثيل فى عالم الأجسام غير الحية .

٨ — فوق هذا وذاك هناك الإرادة ، والعقل ، والشعور ، والعواطف فى بعض الكائنات الحية ليس ثمة ما يقابلها فى الأجسام الجامدة وغير الحية .

إن الحياة — حقاً — تعمل مالا تعمله المركبات الكيميائية ، وأنها تختلف كل الاختلاف عن الجزئيات والذرات ، والالكترونات »(٢) .

---

(١) طبائع الأحياء ١٧، ١٨

(٢) الأساس الجسمانى للشخصية : مترام : ١٩ نقلا عن الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د : يحيى فرعلى : ٥٥

« وبرغم ما تم من المقارنات بين الكائنات ، والآلات ، وبرغم الأحاديث عن التفاعلات الكيموية البعيدة الاحتمال ، فلا يزال الفارق بين الحى وغير الحى أو انقطاع الصلة بينهما مطلقاً .

ومن الوجوه الغريبة للتطور ، اتجاه التفكير الحديث إلى عكس ذلك وذلك بمحو التمييز بينهما.

وتفسير الحياة بمدلولات آلية ، بل إن دلالة كلمة « عضوى » كما تميز عن كلمة آلى هى فى الطريق إلى الزوال(١) ، ولم يعد هناك قصد ، ولا غاية ولا هدف، فقد حلت المادة والمصادفة وعدم القصد محل ذلك كله !!

يقول « جول كارل » لئن كان الحى يختلف عن غير الحى فلا يقوم هذا الإختلاف على تركيبة الكيميائى ، ولا على العناصر التى يتألف منها «فالحى مؤلف من عناصر متنوعة ، ولا نستطيع أن نتصور جسما مؤلفا من قطعة متجانسة ، فالجسم يحتاج إلى تنوع داخلى ، وسر الحياة كان فى مركزة هذه المجموعة المتغايرة ، فالوحدة الحيـــة تحول الإختلاف إلى تخصص ، وتنظيم النشاطات المتباينة فى وظائف متكاملة ، ولكل حى نوع من الشعور بنفسه وبالكل ، وبحاجاته وبالأخطار التى يتعرض لها ،ويكيف سلوكه وفقاً لهذا الشعور .

وهنا يبرز الفرق الحقيق البعيد بين الحى وغير الحى مهما كانت أوجه الشبه كثيرة بينهما فى نواح أخرى إن بين الحياة والمادة هوة لا ينكر أحد وجودها » (٢) .

---

(١) نسيج الحياة : جوزيف وود كرانتن : ٢٣١ — ٢٣٤ ترجمة د/مصطفى عبد العزيز دار القلم سنة ١٩٦٥م

(٢) أصول الحياة : جول كارل : ٤٢ — ٤٧ ترجمة د / خليل الجر المنشورات العربية .

ولهذا تمر بكثير المشتغلين بعلم الأحياء لحظات يقرون فيها بالسر الغامض الأبدى للحياة وما فيها من إبداع إلا أنهم غالبا ما يكونون مقيدين بأغلال المذاهب الآلية ، كما يخافون إلى حد كبير من سخرية رفاقهم فيتحاشون المجاهرة حتى ولو رغمهم منطقهم الذاتى على الاعتراف بأن ماقبل من مقدمات لا يعد مقنعا فى كلياته » (١)

(ب) أصول الحياة :

أما عن أصل الحياة فإن العلم اليوم يواجه أمام ظاهرة الحياة شيئاً جد مختلف عن قوانين الكهرو مغناطيسية ، والذرة ، وقوانين الكيمياء ، والطبيعة : فالمادة الجامدة التى كانت تبدو ثابتة ومتجانسة قد أصبحت متحركة نامية تتغذى ، وتتنفس ، وتتناسل الخ . .

أما : كيف ؟ . ومتى ؟ . ولماذا ؟ . فالعلم لا يعطينا لذلك جواباً شافياً .

ولهذا فهو يعترف بأن هذه فجوة ، أو ثغرة لابد من سدها ، ويكتفى العلم فى الوقت الحاضر بأن يصوغ لنا فروضاً نظرية فحسب فى كيفية نشأة هذه الحياة ، وتحولها من المادة الجامدة إلى المادة الحية وتطورها .

ولهذا فإن آراء العلماء فيما يتعلق بسر الحياة وحقيقتها ونشوئها لا تزال حتى اليوم فروضاً علمية على أحسن الظنون بها — ولم تصل بعد إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة والصحيحة .

وهكذا يسلم العلماء بل ، هم أول من يسلم بأن مجموع معرفتهم قليل إذا قورن بما يجب عليهم تحريه بعد ، وإنه لمن الواضح بأن فرضياتهم على حد

(١) نسيج الحياة : ٣٣٤
(٢) صانع الأحياء ٢٩

كبير من الفجاجة ، وعدم الملاءمة فى كثير من المواضيع الخطيرة ، وأن المفاهيم الأساسية هى الآن فى حالة بالغة من التحول السريع»(٢).

وعلى هذا الأساس الذى يعترف به العلماء فلن نرى أنفسنا مضطرين لأن نعرض نظرياتهم جميعاً سواء فى التولد الذاتى ، أو الفاعلية السماوية ، أو نظرية الكمون ، أو الجراثيم الكونية لأنها جميعاً لا تعدو أن تكون فروضاً نظرية على أحسن الوجوه إن لم تقل إنها أخيلة وتخمينات ، وسنعرض فقط لنظرية الانبثاق التى يتمسك بها أصحاب نظرية التطور.

نظرية الإنبعاق :

وتذهب هذه النظرية إلى أن الحياة قد نشأت من تفاعل المواد الكيماوية ، وتحت تأثير قوى طبيعية أدت إلى تكوين البروتينات التى تتكون منها المادة الحية . أو «البروتوبلازم» ، ولم يكن للبروتوبلازم هذا فى بداية الحياة شكل معين .

ثم تعقدت وتكونت بعد ذلك خلايا جسمية كون بعضها الكائنات الأولى ، وواصل بعضها طريق التطور والرقى مكونا الكائنات الحية العديدة الخلايا والمختلفة الأنواع ثم نشأت الأنواع المختلفة من الكائنات الحية بفعل الطفرات ، والإنتخاب الطبيعى ، الوراثة وترجع الكائنات الحية كلها فى هذه النظرية إلى أصل واحدة(٢) .

وكان من أشهر القائلين بهذه النظرية «لامارك» ، «وأحدث النظريات فى هذا الموضوع جاءت فى كتاب « نشأة الحياة على الأرض » للعالم السوفيتى « ألكسندر أيفانوفيتس أوبارين » مدير معهد باخ للكيماء الحيوية .

(١) ـ ٢ : ١٢٣ تكوين العقل الحديث
(٢) نظرية التطور : ١٢٩ د/ محفوظ عزام .

وقد ذاع صيته فى الأوساط العلمية المعاصرة فى العالم أجمع كمؤسس لنظريه نشأة الحياة على الأرض . والأثر الذى أحدثته نظرية أو بارين فى نشأة الحياة لا يقل شأنا عن الأثر الذى أحدثته نظرية « داروين » من قبل فى تطور المكائنات الحية »(١) .

ومن الغريب أن هذا الإتجاه العلمى فى الوقت الحاضر عن أصل الحياة إنما هو صورة مطورة من المذهب القديم فى التولد الذاتى .

ولقد كان « أوبارين » واثقاً كل الثقة بأنه من الممكن خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية بل إنه ليقول فى خاتمة كتابه « نشأة الحياة على الأرض » .

« إن النجاح الذى حققته علوم الجيولوجيا السوفيتية حديثاً يؤيد الوعد بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكناً فحسب بل سيحقق عما قريب » .

ولكنه سرعان ما تراجع عن زعمه هذا وقد باءت كل محاولاته بالفشل ليقول — : إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية ، أو فى المعمل قد باءت بالفشل »(٢) .

وهكذا : « إن كل محاولة لمعرفة أصل الحياة على الأرض لابد أن تتضمن بالضرورة قدراً كبيراً من الخيال »(٣) .

---

(١) الإسلام والإتجاهات العلمية المعاصرة : ٣٢ ، ٣٣

(٢) المرجع السابق : ٥٤

(٣) لغز الحياة : ٣٧ ترجمة د/عبد الحليم منتصر .

كما يقول هارولدرس وأخيراً يقول الدكتور «كوفانت» — ومازال هذا القول صادقاً حتى اليوم وإلى ما شاء الله : «إن مسألة نشأة الحياة على هذه الأرض كيف نشأت مسألة لا تزال إلى اليوم غامضة كغموضها عند داروين وفي أيامه»[1] ، وصـــدق الله العظيم : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وماكنت متخذ المضلين عضدا)[2] .

(١) مواقف حاسمة : ٧٦ نقلا عن د فرغلي : ٥٣

(٢) الكهف الآية : ٥١

نظرية التطور : نشأتها ، وتطورها

(أ) فى العصور القديمة :

تنسب نظرية التطور إلى كل من «ألفرد رسل ولاس ١٨٢٣ — ١٩١٣م» و « تشارلز داروين ١٨٠٩ — ١٩٨٢م » فى القرن التاسع عشر، وقد نسب المذهب إلى هذا الأخير حتى صار يعرف به فيقال . مذهب « داروين » كما يقال : مذهب التطور أو «مذهب النشوء والارتقاء» .

وقد حمل المذهب من بعده جماعة منهم «توماس هكسلى» و«أورنست هيكل» وغيرهما ممن أذاعوا النظرية مع شيء من التغيير والتطوير، وأشغلوا بها أدمغة الناس طوال القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين ،وما زال صداها يرن فى أدمغة الناس حتى اليوم .

والحقيقة أن فكرة التطور ليست وليدة القرن التاسع عشر، بل وجدت هذه الفكرة عند فلاسفة الاغريق أيضا لا سيما عند (أرسطو : ٣٨٤ — ٣١٢ ق. م) الذى كان يرى أن الكائنات الحية قد ترقت من أنواع بسيطة إلى أنواع معقدة ، إلى أخرى أكثر تعقيداً حتى كان الإنسان فى قمتها :«ففى كل ناحية سواء فى البناء ، أو نمط الحياة ، أو التناسل ، أو التربيه ، أو الإحساس والشعور يوجد تدرج دقيق وارتقاء من أحط الأنظمة العضوية إلى أسماها . . وأن الحياة قد تطورت باستمرار فى تعقيد وقوة »(١) .

---

(١) قصة الفلسفة : ول ديورانت : ١٠٨ ترجمة د/ فتح الله المشعشع ، بيروت ط ٥ : سنة ١٩٨٥م

(ب) فى العصور الوسطى :

وعند فلاسفة الإسلام فى العصور الوسطى وجدت كذلك فكرة التطور نجد ذلك عند البيرونى ، واخوان الصفا ، والعلامة ابن خلدون ، وابن سكويه وغيرهم .

فالكائنات عندهم بدأت بسيطة ، ثم أخذت فى التدرج والتطور إلى أن أصبحت أكثر تعقيدا بمعنى أنه وجدت الكائنات الدنيا ثم العليا ثم ماهو أعلى منها .. وهكذا(١) .

ولكن هذا الترقى والتطور الذى نجده عندهم لا يعدو أن يكون نوعاً من الترتيب ، والتقسيم والتصنيف يعتمد على فضل بعض الكائنات على بعض، وشرف بعضها فوق بعض إلى أن تنتهى فى سلم الشرف إلى الإنسان .. كذلك يرون أن الأدنى إنما خلق من أجل الأعلى ، فالنبات يتغذى على الجماد ،والحيوان يتغذى على النبات، والإنسان يتغذى على النبات والحيوان .

ومن ثم كانت فى الوجود والزمان هكذا ، فالماء قبل التراب، والبحر قبل البر — والنبات قبل الحيوان — والحيوان متقدم الوجود على الإنسان بالزمان لأنها له ولأجله ، وكل شىء هو من أجل شىء آخر فهو متقدم عليه ،(٢) .

---

(١) أنظر (أبو الريحان البيرونى : ١٣٨، ١٣٩) تحقيق أحمد الشحات، ورسائل إخوان الصفا حـ ٢ : ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٧٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ وغيرها ط بيروت ، وابن مسكويه فى الفوز الأصغر : ٨٦ — ٨٩ ، وتهذيب الأخلاق : ٦٩ ، ومقدمة ابن خلدون : ٨٦ ط الشعب

(٢) رسائل إخوان الصفا : م ٢ : ١٢١

يقول « جروتيباوم » : « والحقيقة أن الإنسان يتملكه العجب عندما يقرأ مثل هذه النصوص وكأنه أمام عالم قدمن علماء البيولوجيا فى هذه الأيام »(١).

ولكن الذى يفرق بين هذه الآراء ، وبين ما نراه عند داروين ومن لف لفه فى هذه الأيام هو : أن علماء الإسلام وفلاسفته كانوا يرون أن هذا التطور ، وهذا الترتيب ، وهذا النظام إنما يكشف لنا عن وحدة الخلق ، وعن الحكمة السارية فى هذه المخلوقات ، والتى تجعل منها أنواعاً وأجناساً وأصنافا وأشكالا مختلفة ولكنها متماسكة مترابطه يمسك بعضها بحجز بعض لتدل بوحدتها واتصالها ونظامها وترتيبها على وجود روح سارية فيها جميعا تدل هى الأخرى عـــلى مدبر حكيم هو مصدر هذه الروح ومبدر هذا الوجود .

فهو تطور مخلوق ، لا خالق ، وهو تطور موجه لا محل للصدفه فيه . وهو تطور نحو غاية ، وليس تطوراً أعمى كما يزعم التطوريون فى هذه الأيـام .

إن فكرة التطور لم تكن غريبة ، ولا جديدة على فكر المسلمين . فقد كانوا إلى جانب ما تقدم يؤمنون بأثر البيئة والطبيعة والوراثة فى الـكائنات الحية . وكانوا يعترفون بالتنوع الوراثى (التهجين) ويعبرون عنه بالخلق المركب . كما كانو يعترفون بغريزة حب البقاء ويقررونها فى كتبهم وآرائهم .

يقول « دابر » الأمريكى فى كتابه « النزاع بين العـلم والدين » : إننا

---

(١) راجع قضية الألوهية بين الفلسفة والدين (الله ذاتا وموضوعاً) ٢٣٦ ، ٢٣٧ الأستاذ : عبد الكريم الخطيب

لندهش حين نرى فى مؤلفات — المسلمين — من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر ، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهبا حديثا كان يدرس فى مدارسهم وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتبسطه على الجمادات والمعادن أيضاً » (١) .

ولكن قانون التطور والترقى عندهم كان من السنن الكونية التى تحدثها القدرة الإلهية : ولم يكن التطور يعنى تحول الأنواع بعضها عن بعض ، ولا نشوء بعضها من بعض ، كما لم يكن نشوءا ذاتيا دون خالق أو صانع . وكذلك لم يبخسوا الإنسان حقه ليقولوا إنه من أصل حيوانى ترقى إلى مرتبه الإنسان .

(ج) فى العصر الحديث :

وفى القرن الثامن عشر ظهرت فكرة التطور ظهوراً واضحاً عندما جاء : « بوفون » و « إيزاموس » و « داروين الجد » و « سانت هلير » و « غوته » و « شيلنغ » و « لامارك » وغيرهم حتى طغت هذه الفكرة على النظرة السائدة لهذا الوقت والتى كانت تؤمن بثبات الأنواع التى خلقها الله دون تغيير .

« تشارلز داروين : ١٨٠٩ — ١٨٨٢م » .

لقد كان وجود فكرة التطور فى الجو العام خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر هو الذى « جعلها تظهر ظهورا واضحاً فى أن واحد من عدة مصادر مستقلة ، وتهب كالعاصفة .

(١) نظرية التطور : ١٥١ — ١٦١ ، د : عزام